النشاط الثقافي في الوطن العربي

انطباعات حول ندوة دار «الهلال» المصريّة: ندوة حافلة متميّزة.. ولكنْ..!.

شوقي بغدادي

أن تصدُرَ مجلّةٌ عربيّةٌ شهريّةٌ في أواخرِ القرن التاسع عشر ـ عام ١٨٩٢ على وجه التحديد ـ وأن تستمرّ في الصدور دون انقطاع حتّى اليوم حَدَثٌ استثنائي في مجرى الحياة الثقافيّة العربيّة المعاصرة، وجديرٌ حقّاً بالاعتزاز والاحتفاء.

المجلّة هي **الهلال** المصريّة التي أصدرها «جرجي زيدان»، الكاتب اللبنانيّ الأصل الوافد إلى مصر، وكانت أساساً لدارٍ نمت وازدهرت فيما بعد وصارت مؤسّسة ضخمة لنشر الكتب وإصدار الصحف والمجلّات مثل **المصوّر**، **والاثنين**، **والدنيا**، **وحوّاء**، **والكواكب**، **والبعكوكة**، إضافة إلى سلسلة «روايات الهلال» و«كتاب الهلال». وقد أُقيم في هذه المناسبة ـ مرور مئة عام على صدور العدد الأوّل من مجلّةِ **الهلال** ـ احتفالٌ ثقافيٌّ كبير انعقدت في سياقه ندوة فكريّة كبيرة دُعي لها عددٌ وفير من الكتّاب والمفكّرين والباحثين العرب تحت شعار «مئة عام من التنوير والتحديث». وقد دارت الندوة حول المحاور الرئيسيّة التالية:

١ ـ مشروع النهضة: نجاح وإخفاق.

٢ ـ الإبداع في مشروع النهضة.

٣ ـ النهضة النسائيّة وحقوق الإنسان.

٤ ـ الديموقراطيّة والمجتمع المدني.

٥ ـ الإسلام والعصر.

٦ ـ الموقف من الغرب.

٧ ـ القرن الواحد والعشرون (حلقة نقاش).

كانت زيارةً حاشدةً حقّاً بالأفكار المتنوّعة قراءةً واستماعاً ونقاشاً، كما كانت حافلةً بمتع اللقاءات الشخصيّة مع الآخرين ومع الأمكنة التاريخيّة. كانت ندوة غنيّةً رفيعة المستوى فكراً وتنظيماً لن تزول ذكراها. ولكم كان في ودّي أن أستعرض وقائعها جمعاء، ولكن المجال لا يسمح، فلأكتفِ إذن بالانطباعات التالية:

١ ـ لم تكن الأبحاث المقدّمة كلّها في مستوى الندوة. إذْ كُتب بعضها كما يبدو على استعجال بسبب ضيق الوقت ـ كما يقول أصحابها ـ وهو عذر لا يبرّر بالطبع ظاهرة الكتابة السريعة الشبيهة بالارتجال مثل بحث الدكتور فؤاد زكريا «نحن والغرب» و«المرأة العربيّة والنهضة»، لرضوى عاشور. غير أنّ الأبحاث الأخرى لمحمد عابد الجابري حول «الديموقراطيّة والمجتمع المدني»، ومحمود أمين العالم حول «مشروع النهضة والإبداع»، على سبيل المثال لا الحصر ومداخلات كانت أكثر عمقاً وجدوى.

٢ ـ يلاحظ المتتبّع أنّ ثمّة ظاهرة غير صحيّة حكمت بعض السجالات، وهي: «عدم الإصغاء للآخرين بعمق» أو «عدم فهمهم كما يجب». فالدكتور فؤاد زكريا مثلاً، وهو أستاذ الفلسفة المعروف، بعد استماعه إلى تعقيب د. حسن حنفي على بحثه الذي يحمل عنوان «نحن والغرب» ـ وبعد استماعه إلى تعقيبات أخرى ـ شرع يدافع عن نفسه كأنّه متّهم بالتحيّز للغرب مع أنّ تعقيب د. حنفي ـ وهو الرئيسي ـ لم يكن اتهاماً له بل كان مشروعاً نظريّاً وعمليّاً للتعامل مع الغرب يتكامل مع بحث د. زكريا ولا يتعارض معه بشكل قطعي. لقد أراد د. زكريا في بحثه أن ينبّه إلى ضرورة الأخذ بوجه الحضارة الغربيّة الثقافيّ التقدميّ وليس الاكتفاء بوجهها العدواني الاستعماري فحسب. والدكتور حنفي لم يرفض هذه الأطروحة لكنّه نقلها إلى مستوى أعمق حين استعرض المناهج السابقة والمتداولة حتّى الآن في التعامل مع الغرب، ثمّ اقترح منهجه الخاصّ الذي يدعو فيه إلى اعتبار الحضارة الغربيّة ظاهرة ـ لا قدوة ـ جديرة بالدراسة الموضوعيّة دون موقفٍ مُسبقٍ منها. ومع ذلك فإنّ هذا لم يمنع من بروز الاختلاف والتعارض بين الدكتورين: «زكريا» و«حنفي»، الأمر الذي يؤكّد أنّهما كانا ينطلقان من مواقف مسبقة كلٌّ بالنسبة للآخر. لقد كان الدكتور زكريا يصغي إذن إلى ما تعوّد أو ما يفترض سماعه من الدكتور حنفي وهذا الأخير كان يصغي لنفسه أكثر من إصغائه للمتحدِّث الرئيسي.

٣ ـ تقديم أبحاث سطحيّة أو غير

مكتملة أو مستعجلة ثمَّ الاعتذار عن ذلك بضيق الوقت مسألة غير واردة. وأمَّا القول بأنَّ الهدف من البحث هو إثارة النقاش فحسب فهذا أمر غير وارد أيضاً؛ ذلك لأنَّ التجربة أثبتت أنَّ مستوى النقاش كان ينحصر على الأغلب بمستوى البحث الأصلي والنقاط المطروحة فيه بدلاً من الذهاب عميقاً في استجلاء أبعاده وسدّ ثغراته أو إكمال نواقصه؛ والسبب يعود إلى كثرة المتكلّمين وحصر حصّتهم من الوقت لشرح أفكارهم بخمس دقائق تنقضي بسرعة قبل أن يكملوا مقدّمات حديثهم.

٤ ـ طرح بعض الأبحاث على أساس فرضيّة لا أساسَ واقعيّاً لها ثمَّ الانطلاق منها بالتالي إلى مقدّمات وشروح بدهيّة لا طائل تحتها، أو إغفال المشكلات الأساسيّة كما في بحث «نحن والغرب» للدكتور فؤاد زكريا؛ فالفرضيّة المبني عليها هي القول بوجود التباسات في أذهان العرب عموماً حول فهم الغرب على أساس أنّه ذو وجهٍ واحد هو الوجه العدوانيّ الاستعماريّ. والنتيجة إذن ـ في البحث ـ رفض وجهه الآخر الحضاريّ التقدُّميّ من قبل العرب والمسلمين «الجهلة». لكن الواقع هو أن لا أحد يجهل هذا الوجه الحضاريّ التقدّميّ للغرب، وهذا معناه أنَّ الفرضيّة الأساسيّة غير واردة، وبالتالي فإنَّ الإشكال الإساسي ليس في رفضنا لهذه الحضارة وإنَّما في رفض الغرب نفسه إطلاعنا على أسرارها ومنعنا بمختلف الوسائل من الوصول إليها؛ وهذا ما لم يقله الدكتور زكريا.

وهكذا تبدو المحاضرة أشبه ما تكون بدفاعٍ عن الغرب «المظلوم» بسبب جهلنا لحقيقته الكاملة وهجوم على الشرق العربي «الظالم» بسبب قصوره عن رؤية شمس الحقيقة الساطعة في نظر الباحث الذي يملك الحقيقة وحده.

ومن المؤكّد أنَّ الدكتور زكريا لا يقصد ذلك، ولكن طريقته في طرح موضوعه مُغفلاً دور الغرب المقصود والواعي في تعطيل النهضة العربيّة وردّ المسألة كلّها إلى قصور العرب أنفسهم، هذه الأطروحة الناقصة تؤدّي حتماً إلى فهم موقف الدكتور على أنّه دفاع عن الغرب وما هو بذلك، غير أنّ النوايا الحسنة وحدها لا تكفي لفهم المواقف إذا لم يُحسن أصحابها طرحها وكلّنا نعلم أنَّ طريق جهنّم مفروش بالنوايا الحسنة.

٥ ـ ثمّة ظاهرة بدأت ملامحها تتجمّع في المناقشات والتحليلات التي تدور حول انهيار العالم الاشتراكي وأهميّة المجتمع المدني كحاضنٍ أساسي للديموقراطيّة، وهذه الظاهرة هي بروز الشكوك جدّيّاً لدى الاشتراكيّين أنفسهم حول إمكان تحقيق الديموقراطيّة في ظلّ نظام يُلغي الملكيّة الخاصّة كي يحصرها في أيدي الشعب ـ كما يزعمون ـ أو كما يحدث عادةً في أيدي ممثّلين بيروقراطيّين عنه. وإلّا فكيف يمكن تحقيق الاشتراكيّة مع الإبقاء على الملكيّات الخاصّة؟

تبدو هذه الظاهرة بشكلٍ موارَب في بحث الدكتور محمد عابد الجابري حول «الديموقراطيّة والمجتمع المدني» الذي شرح باقتدار تأثير غياب الديموقراطيّة في انهيار ما سُمّي بالأنظمة الاشتراكيّة مجازاً، ومزايا المجتمع المدني التي أبدعها وأسّس لها الأسلوب البورجوازي الغربي في الإنتاج وعلاقاته، أو في النظام الاقتصادي عموماً، الأمر الذي يدفع إلى الاعتقاد بأنَّ «الجابري» يدعو إلى نظامٍ مماثل ولكنّه يستدرك بعد قليل ليؤكّد على أهمّيّة الفكر الاشتراكي. ولكن كيف يمكن تطبيق هذا الفكر؟. كيف يمكن تحويله إلى واقع؟. هذا ما لا يجيب عليه أحد.. ثمَّ يكشف عن عيوب النظام الرأسمالي «الاحتكاري».. ولكن كيف يحافظ هذا النظام على بقائه وحيويّته بالرغم من هذه العيوب؟. وهذا سؤال أيضاً لا يجيب عليه أحد، الأمر الذي يؤكّد الظاهرة التي أشرنا إليها وهي أنَّ الاشتراكيّين أنفسهم بدأوا يشكّون في إمكان الجمع بين المجتمع المدني الديموقراطي والاشتراكيّة، ولكنّهم يراوغون أو يستحون من لفظ هذه البحصة من أفواههم.

٦ ـ معظم الأبحاث والمداخلات التي قُدّمت حول «الإسلام» ظلّت نظريّة كالعادة، بمعنى أنّها تتحدّث عن مزايا الدين الإسلامي وحسناته العامّة أو عن إشكالاته التي تجعل التطبيق الحرفي لجميع تعاليمه أمراً مستحيلاً في العصر الحديث. وهذه مرحلة من النقاش آن لنا في اعتقادي أن نتخطّاها إلى مرحلةٍ أكثر تقدّماً بمعنى أنَّ «الإسلام» لم يعد ممكناً رفضه في بناء أيّ مجتمعٍ عربيّ معاصر، وإنَّما الإشكال الأساسي الآن ليس في قبوله أو رفضه وإنَّما في الطريقة الممكن تطبيقها على أرض الواقع لجعل المجتمع «إسلاميّاً» والدخول في التفاصيل العمليّة لهذه الطريقة...

٧ ـ كان تنظيم الندوة ممتازاً وبخاصّة فيما يتعلّق بطباعة الأبحاث والمداخلات المكتوبة وتوزيعها على المشاركين فوراً ولم يبق إلّا انتظار طباعة المداخلات غير المكتوبة، والمسجلّة بالطبع، وعندئذ ستكون الجدوى مكتملة وعامّة كما نرجو أن تظهر في إصدارات «الهلال» المقبلة.

تلك هي بعض انطباعاتنا حول تلك الندوة التاريخيّة التي تنظّمها لأوّل مرّة مجلّة عربيّة لا مؤسّسة رسميّة حكوميّة، ثمَّ يُشارك فيها الجميع وكأنّها احتفالٌ قوميّ.. فهنيئاً للهلال التي تجدّد أدواتها كما يقال وإنَّا لمنتظرون..